

تفسير البحر المحيط

@ 267 @ وقد تقدّم قول المفسرين في طوله ، ونبه على استحقاق طالوت للملك باصطفاء
□ له على بني اسرائيل { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ
الْخِيَرَةُ } وبما أعطاه من السعة في العلم ، وهو الوصف الذي لا شيء أشرف منه : {
إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } أنا أعلمكم با□ ومن بسطة الجسم
، فإن لذلك عظماً في النفوس وهيبة وقوّة ، وكثيراً ما تمدّحت العرب بذلك قال الشاعر :
% (فجاءت به سبط العظام كأنما % .
عمامته بين الرجال لواء .
%) .
وقال : % (بطل كأن ثيابه في سرحة % .
يحذى نعال السبت ليس بتوأم .
%) .
وقال : % (تبين لي أن القماعة ذلة % .
وان أعزاء الرجال طيالها .
%) .
وقالوا في المدح : طويل النجاد رفيع العماد ، وكان رسول □ صلى □ عليه وسلم) ، إذا
ماشى الطوال طالهم . قال ابن زيد : كانت هذه الزيادة بعد الملك ، وقال وهب ، والسدسي ،
قبل الملك ، فالمعنى : وزاده على غيره من الناس بسطة ، بالسين ، أبو عمرو ، وابن كثير
، و : بالصاد نافع ، وابن كثير ، رواية النقاش ، وزرعان ، والشموني . وزاد : لئن بصطت
، وبباصط ، وكباصط ، ومبصوطتان ، ولا تبصطها كل البصط ، وأوسط ، وفما اصطاعوا : ويصطون
، والقصطاس ، وروى نحوه : أبو نسيط عن قالون . .
{ وَاللَّهِ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } ظاهره أنه من
معمول قول النبي لهم ، لما علم بغيتهم في مسائلهم ومجادلتهم في الحجج التي تبديها ،
أتم كلامه بالأمر القطعي ، وهو أن □ هو الفاعل المختار ، يفعل ما يشاء . ولما قالوا : {
وَنَزَحْنُ أَجْقُ بِالْمُلْكِ مِنْهُ } فكان في قولهم ادّعاء الأحقية في الملك ، حتى
كأن الملك هو في ملكهم ، أضاف الملك إلى □ في قوله : ملكاً ، فالملك ملكه يتصرف فيه
كما أراد ، فليستم بأحق فيه ، لأنه ملك □ يؤتیه من يشاء ، وقيل : هاتان الجملتان ليستا
داخلتين في قول النبي ، بل هي إخبار من □ تعالى لنبيه صلى □ عليه وسلم) ، فهي

معتضة في هذه القصة ، جاءت للتشديد والتقوية لمن يؤتية اﻻ الملك ، أي : فإذا كان اﻻ
تعالى هو المتصرف في ملكه فلا اعتراض عليه { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } وختم بهاتين
الصفتين ، إذ تقدّم دعواهم أنهم أهل الملك ، وأنهم الأغنياء ، وأن طالوت ليس من بيت
الملك ، وأنه فقير فقال تعالى : إنه واسع ، يوسع فضله على الفقير ، عليم بمن هو أحق
بالملك ، فيضعه فيه ويختاره له . .

وفي قصة طالوت دلالة على أن الإمامة ليست وراثية ، لإنكار اﻻ عليهم ما أنكروه من التملك
عليهم من ليس من أهل النبوة والملك ، وبين أن ذلك مستحق بالعلم والقوة لا بالنسب ،
ودل أيضاً على أنه لا حظ للنسب مع العلم ، وفضائل النفس ، وأنها مقدّمة عليه لاختيار
اﻻ طالوت عليهم ، لعلمه وقدرته ، وإن كانوا أشرف منه نسباً . .

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة الإخبار بقصة الخارجين من ديارهم ، وهم عالم لا يحصون ،
فراراً من الموت ، إما بالقتل إذ فرض عليهم القتال ، وإما بالوباء ، فأما تهم اﻻ ثم
أحياءهم ليعلموا أنه لا مفر مما قدّره اﻻ تعالى ، وذلك لئلا نسلك ما سلكوه ، فنحجم عن
القتال ، فأتت هذه الآية مثبتة لمن جاهد في سبيله ، وذكر تعالى أنه ذو فضل على الناس ،
وذلك بإحيائهم والإحسان إليهم ، ومع ذلك فأكثرهم لا يؤدّي شكر اﻻ . ثم أمر بالقتال في
سبيل اﻻ ، وبأن نعلم أنه سميع لأقوالنا ، عليم بنياتنا ، ثم ذكر أن من أقرض اﻻ فاﻻ
يضاعفه حيث يحتاج إليه ، ثم ذكر أن